

اندفعت ثلوج واشنطن بغزارة في ذلك المساء وخلتها تندلق في جوفي فشربتها ولم ترو ظمأ الصحراء المتجرد في داخلي: ثلوج بيضاء تلوح كضوء خفوق، تفصلني عن سواد الليل المتربيع على عتبات الأفق. ثلوج تجذر القحط المختزن في الذاكرة وتغييم بين الإدراك واللاشعور فأسدل دثار الثلوج كخيمة يظلالها الغبار، وادخل بين الكهوف وأعلن عجزي عن استيقاف تلك الليلة الذاهبة كخشخشة ريح. عربات تخفق خلف نافذتي.. خلف أسوار الحديقة ثم تتبه في أزقة الصحراء ولم أر سوى أشباح بعيدة لضباب ينكون بفعل الغليان، احترقت وريقات الزعتر المتناثرة من قبضة يدي ولم أبه بها.. ولم أبه لتسلل الضوء وانعكاسه على الركوة المرتجفة بين أصابعـي. ضياء يشق غبار الثلوج المتراكم على ذاكرة الشتاء ليعلن عن شروق الشمس.. شعاع يتكسر على ظهر نافذتي ويغمر الممرات ويتركني أفتـش عن نوم هنـئ.. نوم مكتنز بالأحلـام.. فأغـفو على أبـخـرة الزـعـترـ وـاخـتـاقـاتـ الزـكـامـ وـصـوتـ سـلامـةـ بـنـتـ فـرجـ يـهدـهـنـيـ: "أشـرـبـيـ الزـعـترـ وـالـزـنجـبـيلـ، زـينـ عـنـ الزـكـامـ" ثم تـمضـيـ وأـحـسـ بـأنـ خـلـفيـ مجـراتـ مـهـشـمةـ تـدـفعـنـيـ إـلـىـ مـيـاهـ مـضـطـرـبـةـ فـامـشـيـ وـاتـركـهاـ تـرـعـدـ تـحـتـ قـدـميـ. فـيـ سـكـةـ خـيـلـ دـبـيـ كـنـتـ اـخـطـرـ كالـغـرـيـبـةـ، اـزـنـ خـطـوـاتـيـ وـزـنـاـ.. اـبـحـثـ عنـ اـمـتدـادـ لـلـمـكـانـ وـلـمـ أـجـدـهـ.. لـلـزـمـانـ وـلـمـ اـهـتـدـ إـلـيـهـ. أـبـاغـتـ بـزـمـنـ يـتـهـجـ روـيدـاـ روـيدـاـ وـعـصـرـ مـغـيبـ وـرـاءـ الـأـضـوـاءـ الـمـشـتـلـعـةـ الـضـارـبةـ عـلـىـ وـجـوهـ الـمـارـةـ وـالـمـرـتـكـزةـ عـلـىـ ثـفـورـ النـسـاءـ الـمـنـبـهـرـاتـ بـمـاـ تـعـرـضـهـ الـمـتـاجـرـ مـنـ أـمـتـعـةـ، وـقـفـتـ اـتـامـلـ تـلـكـ النـسـوـةـ وـهـنـ فـيـ حـالـةـ حـرـكـةـ دـائـيـةـ.. مـهـرـولـاتـ، غـادـيـاتـ وـمـدـبـرـاتـ. عـلـىـ مـقـرـبـةـ مـنـ الـمـشـهـدـ جـلـسـ رـجـلـ كـهـلـ شـاخـصـ بـبـصـرـهـ نـاحـيـةـ الـمـجـهـولـ، تـقـاطـرـ الـحـبـاتـ الـمـرجـانـيـةـ بـيـنـ أـصـابـعـهـ مـتـنـاغـمـةـ مـعـ تـمـتـمـةـ غـيرـ مـسـمـوـعـةـ يـلـهـوـ بـهـاـ وـهـوـ زـائـعـ الـبـصـرـ. التـفـتـ إـلـيـهـ مـتـعـمـدةـ: مـسـاكـ اللـهـ بـالـخـيـرـ يـاـ أـبـوـ حـمـدانـ.. اـبـتـسـمـ وـتـلـاجـلـجـتـ عـيـنـاهـ بـالـدـمـوعـ لـسـمـاعـ صـوـتهاـ أـوـ بـفـعـلـ السـنـ رـبـماـ. تـخـلـ صـوـتهـ الدـافـعـ مـسـامـ سـلامـةـ بـنـتـ فـرجـ وـانـتعـشـتـ فـسـبرـتـ وـجـنـتـاـهـ وـهـمـاـ مـتـخـذـتـاـ لـونـ الـأـرـجـوـانـ، مـاـلـ طـرـفـ بـرـقـعـهـاـ بـرـفـقـ كـاـشـفـاـ عـنـ شـفـتـيـنـ قـرـمـزيـتـيـنـ وـبـسـرـعـةـ أـعـادـتـهـ إـلـىـ وـضـعـهـ، زـمـ النـوـخـذـاـ شـفـتـيـهـ النـاـشـفـتـيـنـ وـفـرـكـ شـارـبـيـهـ الـذـيـنـ خـفـتـ غـازـارـتـهـاـ وـلـمـ يـتـبـقـ مـنـهـمـ سـوـىـ نـقـطـةـ بـيـضـاءـ فـيـ مـنـتـصـفـ الشـفـةـ الـعـلـيـاـ، لـمـ تـلـاحـظـ سـلامـةـ ذـلـكـ التـوـتـرـ الـبـادـيـ عـلـىـ مـحـيـاـ النـوـخـذـاـ.. وـإـنـماـ اـكـتـفـتـ بـصـوـتهـ الـذـيـ اـخـذـ يـسـتـعـيـدـ طـرـاوـتـهـ بـعـدـمـ أـيـقـنـ بـأـنـهـ لـيـسـ وـحـدـهـ فـيـ شـارـعـ سـكـةـ الـخـيـلـ: "خـذـيـ زـعـترـ وـزـنجـبـيلـ هـذـاـ زـينـ عـنـ الـبـرـدـ". قـلـتـ لـهـاـ أـرـيدـ لـبـانـاـ.. مـدـتـ يـدـاـهـ نـاحـيـةـ الـكـيـسـ بـسـرـعـةـ وـأـخـرـجـتـ حـيـاتـ كـهـرـمـانـيـةـ وـنـثـرـتـهـاـ عـلـىـ رـقـعـةـ مـنـ الـقـرـطـاسـ: "هـذـاـ لـبـانـ ظـفـارـيـ.. هـذـاـ خـصـوصـيـ مـاـ نـعـطـيـهـ إـلـاـ لـلـغـالـيـنـ". تـقـولـ ذـلـكـ وـعـيـنـاهـ تـرـقـبـانـ خـلـجـاتـ النـوـخـذـاـ الـذـيـ اـخـذـ يـسـتـرـقـ النـظـرـ إـلـيـ نـحـرـهـاـ. لـؤـلـؤـةـ حـصـبـاءـ بـرـقـتـ فـجـأـةـ مـنـ وـرـاءـ الـأـرـهـافـ الـتـيـ تـرـفـتـ عـلـىـ صـدـرـ سـلامـةـ. كـانـ رـاشـدـ بـنـ نـاصـرـ قدـ أـهـداـهـاـ لـهـاـ "هـكـذـاـ تـخـيلـتـهـاـ" أـوـ كـانـ ضـمـنـ زـوـاجـهـاـ مـنـ سـعـيدـ بـنـ مـرـدـ الـذـيـ فـقـدـ فـيـ الـبـرـ أـثـنـاءـ موـاسـمـ السـفـرـ. رـحـلـ سـعـيدـ مـنـ دـوـنـ أـنـ يـهـبـ سـلامـةـ الـخـنـىـ الـمـنـتـظـرـ وـهـكـذـاـ بـقـيـتـ وـحـيـدـةـ تـنـاظـرـ رـاشـدـ مـنـ خـلـفـ الـبـرـقـ لأـكـثـرـ مـنـ أـرـبعـعـ عـامـاـ. كـانـ يـوـمـاـ حـارـاـ قـائـظـاـ مـنـ صـيفـ تمـوزـ عـامـ 2002ـ عـنـدـمـ زـرـتـ شـارـعـ سـكـةـ الـخـيـلـ أـتـفـقـدـ مـرـتـاديـهاـ كـالـعـادـةـ وـاتـبـعـضـ مـنـ عـنـدـمـ أـمـيـ سـلامـةـ، فـرـحـلـتـيـ أـوـشـكـتـ قـرـيبـةـ. تـعـودـتـ أـنـ تـسـأـلـنـيـ فـيـ كـلـ مـرـةـ أـزـورـهـاـ فـيـهـاـ "هـاـ مـتـىـ الشـوـمـةـ" ثـمـ تـهـمـمـ بـأـدـعـيـةـ يـصـلـنـيـ مـنـهـاـ الـمـقـطـعـ الـأـخـيـرـ" اللـهـمـ بـالـحـفـظـانـ وـالـجـبـرـانـ". وـأـغـادـرـ السـوـقـ مـحـمـلـةـ بـالـدـعـوـاتـ وـبـأـكـيـاسـ الـأـعـشـابـ وـالـأـدـوـيـةـ أـكـدـسـهـاـ سـنـةـ بـعـدـ أـخـرـىـ إـذـ مـازـالـ بـعـضـ مـنـهـاـ يـسـكـنـ أـرـفـفـ مـطـبـخـيـ فـيـ واـشـنـطـنـ. ذـلـكـ النـهـارـ مـنـ سـبـتمـبرـ عـامـ 2004ـ كـانـ الـفـرـحةـ تـعـرـشـ عـلـىـ ذـهـنـيـ، فـقـطـ لـأـنـتـيـ أـرـدـتـ أـنـ اـخـبـرـهـاـ بـأـنـتـيـ عـدـتـ: "عـنـدـمـاـ تـعـوـيـنـ إـلـىـ الـبـلـادـ لـأـرـمـ اـعـرـفـ عـلـشـانـ اـفـرـ بـنـجـاحـكـ". وـلـمـ أـجـدـهـاـ. فـيـ ذـلـكـ النـهـارـ لـمـ يـكـنـ رـاشـدـ بـنـ نـاصـرـ قـابـعاـ عـلـىـ دـكـتـهـ كـالـمـعـتـادـ، وـلـمـ تـجـلـسـ سـلامـةـ بـنـتـ فـرـجـ فـيـ الرـكـنـ الـمـقـابـلـ لـهـ، كـانـ مـكـانـهـمـ فـارـغاـ مـهـمـلـاـ تـنـبعـتـ مـنـهـ رـائـحةـ الـرـطـوبـةـ، كـانـ مـكـانـهـمـ نـتـنـاـ مـلـيـئـاـ بـبـصـاقـ الـمـارـةـ. فـرـاغـ دـامـسـ يـلـفـ شـارـعـ سـكـةـ الـخـيـلـ، فـانـكـفـاتـ كـلـ الرـؤـىـ. فـيـ ذـالـكـ النـهـارـ الـغـامـقـ لـمـ تـكـتـلـ عـيـنـيـ بـرـؤـيـهـمـاـ وـلـمـ تـصـلـنـيـ رـائـحةـ دـهـنـ الـعـودـ الـمـنـبـعـتـةـ مـنـ ثـنـايـاـ وـجـودـهـمـاـ الـمـمـتـدـ عـلـىـ الـذـاـكـرـةـ،